

حكمة نزول القرآن منجماً:

نزل القرآن منجماً ولم ينزل دفعة واحدة لحكمة ذكرها الله تعالى في قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۗ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) [الفرقان: ٣٢]، وقوله تعالى: (وَقْرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً) [الإسراء: ١٠٦]،

هتان الآيتان تدلان على أن الحكمة من نزول القرآن منجماً هي:

1- من أجل تثبيت فؤاد الرسول - صلى الله عليه وسلم، وهذا كما بينه الله في قوله تعالى: (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۗ) [الفرقان: ٣٢]. إن كلمة «الْفُؤَادُ» تدل على القلب، وتدل أيضاً على العقل¹، فتثبيت فؤاده تثبيت قلبه وعقله. قال الواحدي النيسابوري في قوله تعالى (لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۗ) "لِنُقَوِّي بِهِ قَلْبَكَ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَمَا نَزَلَ عَلَيْهِ وَحِيٍّ جَدِيدٌ أَزْدَادٌ هُوَ قُوَّةٌ قَلْبٍ"² وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية: "والحكمة فيه: أن نقوى بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه، لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء، وجزأ عقيب جزء"³.

2- من أجل قراءته - صلى الله عليه وسلم - على الناس على مكث وتؤده، قال تعالى: (لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ) [الإسراء: ١٠٦]. إن القرآن نزل في قوم أميين، لا يقرأون ويكتبون، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) [الجمعة: ٢]، وأراد الله أن يكون القرآن محفوظاً في الصدور، فكان نزول القرآن مفرقاً ليسهل على النبي صلى الله عليه وسلم تلاوته عليهم، وليسهل عليهم أن يحفظوه وأن يلتزموا بما جاء فيه من الأحكام⁴. عن أبي العالية قال: قال عمر: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن جبريل نزل بالقرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - خمس آيات خمس آيات (الذهبي في فضائل العلم، والبيهقي في شعب الإيمان، والخطيب).

3- من أجل أن ينزل حسب الحوادث وجوابات السائلين. هذا يفهم من قوله تعالى (وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً) [الإسراء: ١٠٦]. قال شهاب الدين الألوسي: "وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً" على حسب الحوادث والمصالح فذكر هذا بعد قوله تعالى: (فَرَقْنَاهُ) الخ مفيد وذلك لأن الأول دال على تدرج نزوله ليسهل حفظه وفهمه من غير نظر إلى مقتضى لذلك وهذا أخص منه فإنه دال على تدرجه بحسب الاقتضاء"⁵ فكان في نزول القرآن الكريم منجماً مسaire للحوادث والوقائع وعلاجاً لما يطرأ في حياة المسلمين من قضايا ومشاكل. ويوضح هذه الحكمة ما روي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء «لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ». لقالوا «لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا». ولو نزل «لَا تَزْنُوا». لقالوا «لَا نَدْعُ الزَّيْنَةَ أَبَدًا». لقد نزل بمكة على محمد - صلى الله عليه وسلم - وإني لجارية ألعب (بل

1 أنظر إلى معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار (3/ 1659)

2 الوجيز للواحدي (ص: 778)

3 الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (3/ 278)

4 الواضح في أصول الفقه للمحمد حسين عبد الله، 46-47

5 تفسير الألوسي = روح المعاني (8/ 178)

السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿[القمر: ٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده (رواه البخاري).

أول ما نزل:

أصح الأقوال أن أول ما نزل هو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [العلق: ١-٥]، ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أول ما بُدئ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء فكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه - قال والتحنث التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود بمنزلها ، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ما أنا بقارئ » . قال « فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال اقرأ . قلت ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني . فقال اقرأ . قلت ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم) » . الآيات إلى قوله (علم الإنسان ما لم يعلم) فرجع بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ترجف بوادره (رواه البخاري).

آخر ما نزل:

- 1- قيل: آخر ما نزل آية الربا، لما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - آية الربا (رواه البخاري). والمراد بها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]
- 2- وقيل: آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨١] لما رواه النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس: آخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال آخر ما نزل من القرآن كله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية تسع ليالي ثم مات ليلة الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول.
- 3- وقيل: آخر ما نزل آية الدين، لما أخرج ابن جرير من طريق ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن عهدًا بالعرش آية الدين. (مرسل صحيح الإسناد). والمراد بها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]
- 4- وقيل: آخر ما نزل سورة النساء، لما أخرجه البخاري عن البراء - رضي الله عنه - قال آخر آية نزلت حاتمة سورة النساء ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: 176] قال الحافظ جلال الدين السيوطي: ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا ﴿وَاتَّقُوا﴾ [البقرة: ٢٨١] وآية الدين، لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ولأنها في قصة واحدة، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر ذلك وذلك صحيح. وقول البراء: آخر

عليهم قتال المشركين كافة⁸ قال تعالى: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) [التوبة: ٣٦].

⁸ زاد المعاد (3/ 64)